

## الحجاج الجميل: في رسالة «التوابع والزوابع» لابن شهيد الأندلسي

الأستاذة سامية الدريدي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

مازلنا نذكر الأثر الجميل الذي ارتسم في نفوسنا حين قرأنا رسالة التوابع والزوابع للمرة الأولى. فالأثر طريف في بنيته القصصية أنيق في لغته مشير في أفكاره لا سيما النقدية منها، ولا يخفى على أحد أن إعادة القراءة للأثر ذاته قد تخلف في ذاتك أشياء لم تخلفها القراءة الأولى وقد تقودك إلى طرح أسئلة لم تطرحها من قبل. ولذلك حين عدنا إلى رسالة التوابع والزوابع نعيد قراءتها ونتدبر لغتها وأساليب القول فيها حاولنا أن نقرب فيها النظر بتغيير زاوية الاهتمام وذلك بالبحث عن «الحجاج» فيها. ودافعنا الأساسي في ذلك «الهدف» من كتابة الرسالة. فالكمل يعلم أنها وضعت دفاعاً عن النفس ضدّ المشكّكين في قدراتها الأدبية وتسفيها للخصوم الذين قللوا من شأن صاحبها ورموه تارة بضعف القريحة وطورا بالأخذ أو السرقة. فالغاية فيها سافرة والقصد فيها معلن وذلك شرط ضروري من شروط كل خطاب حجاجي.

يقول الشاذلي بو يحيى في ذلك «فلقد كان ابن شهيد غزير الإنتاج شعرا ونثرا حريصا على علو ذكره كثير الجدل والنزاع يخوض المعارك الأدبية فينتصر فيها على خصومه عادة. ورغم انتصاراته وحدة ردوده فقد تألم كثيرا من أذية منافسيه وقد كانوا يطعنون في أدبه فيعيبونه بالإسهاب في الشعر والتصنع في النثر وبقلّة الأخذ عن الأساتيد وجهل النحو والغريب. بل ذهبوا إلى القدح في

درايته بالأدب وإتقانه النظم قائلين من أين له هذا على صغر سنّه وقلة طلبه فرموه بالانتحال والسّرقه الشعريّة. فرأى أن يفحمهم بتأليف مبتكر فيه إبداع وفيه إثبات لمواهبه وعرض لنماذج من أحسن ما قال شعرا ونثرا وفيه إقرار من فحول الشعر وفطاحل النثر يشهدون له بالنبوغ فيهما»<sup>(1)</sup>.

فأهمّ دوافع تأليف الرسالة «حجاج». إنّه كما ذكرنا يحتجّ لنبوغه ويحتجّ لسفاهة خصومه، ومن هنا جاز لنا التّساؤل عن أشكال الحجاج في الرسالة وعن مختلف أساليبه ولكننا نتساءل عن أمر أهمّ من ذلك هو «الجمال» في هذا الأثر الأدبي بما فيه من حجاج أو بما قدّر له من حجاج.

وليس من البديع أن نتحدّث من حيث المبدأ عن صلة بين الجمال والإقناع. صلة تفتّن إليها القدّامى قبل المحدثين حين بينوا أنّ الكلام الجميل أنفذ إلى الأسماع وألصق بالأفئدة والأذهان وحين أكّدوا أنّ الكلام متى كان جميلا شغل المتلقّي بجماله عن تفقّد مواطن الزلل فيه وألهاه عن تدبّر ما فيه من ضعف أو خلل، ولذلك أكّد الجرجاني أنّ الكلام الجميل القائم على التّصوير أفعّل في النفوس والعقول من الكلام العادي العاري من التّصوير وذلك في كلّ أنواع الخطاب فإذا كان هذا الكلام الجميل «مدحا كان أبهى وأفخم... وإن كان ذمّا كان مسّه وميسمه ألدع... وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر...»<sup>(2)</sup>.

وتحدّث المتحدّثون ممّن انشغلوا بالحجاج وقضايا طويلا عن ثنائيّة حجاج / جمال وأكّدوا أنّ الحجاج باعتباره جملة التّقنيّات التي تعتمد في الخطاب قصد إقناع المتلقّي بما جاء فيها أو حمّله على الإذعان له دون اقتناع حقيقي يحتاج

(1) الشادلي بويحيى : ابن شهيد الأندلس : حياته شعره ونثره : رسالة التّوابع والزّوابع، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنّشر والتّوزيع، تونس 1993 ص ص 174-175.

(2) عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ط دار المعرفة لبنان، د ت ص 92.

فعلا إلى جمال يوشيه ويقوّي فعله ويدعم أثره وخاصّة يموّه مواطن المغالطة والسّفسطة فيه فلا تنكشف إلا في حال تحليل دقيق للخطاب وتفكيك للحجج وتفقد متأنّ للدلائل والبراهين.

بل إنّ الدّارسين للحجاج ممّن نظروا في الحجاج الشّفوي أو في طرائق الإقناع في حال خطاب شفوي يلقي على أسماع وأنظار جمهور متلقّ أكّدوا كما فعل القدامى في حديثهم عن الخطيب ومقتضيات المقام أنّ الوجه الجميل والصّوت الجميل أداتان فاعلتان جدا في توجيه المتلقي والمتلقين نحو وجهة مقصودة هي عندهم الغاية الحجاجيّة للخطاب.

فإذا ما نظرنا في رسالة التّوابع والزّوابع وقرأنا كل ما جاء فيها قراءة تربط فحوى الرّسالة وأشكالها الفنيّة وخصائصها الأسلوبية بغاية الخطاب النهائيّ وهي كما بيّنّا دفاع عن النّفس وإثبات لنبوغها وتسفيه للحساد والخصوم وكلّ مشكّك في مكانة «أبي عامر» الأدبيّة وقفنا على توا شجّ مثير بين الحجاج والجمال أو بين كلّ «مقنع» وكلّ «جميل».

مدخل الرّسالة: هو محاورّة أدبيّة في شكل رسالة يمثل فيها ابن شهيد «المرسل» في حين كان المرسل إليه أبا بكر بن حزم وهو واحد من أدباء الأندلس من معاصري «ابن شهيد»، والرّسالة مساجلة بين صاحبها وأبي بكر هذا باعتباره شاكّا في قدرة ابن شهيد الأدبيّة طاعنا في كفاءته فيدلي أبو عامر بعبقريّة ويقدم أكثر من حجة لبيان رسوخ قدمه في الشّعْر والبيان، يقول ابن شهيد مستحضرا كلام أبي بكر بن حزم «فقلت كيف أوتي الحكم صيبا وهزّ بجذع نخلة الكلام فاسأقط عليه رطباً جنيّاً أمّا إنّ به شَيْصَبَاناً يهديه وشيطاناً يأتيه وأقسم أنّ له تابعة تنجده وزابعة تؤيّده»<sup>(1)</sup>.

(1) ابن شهيد الأندلسيّ، رسالة التّوابع والزّوابع، تحقيق بطرس البستاني، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتّوزيع، تونس د ت ، ص 88.

ففي هذا الكلام المنقول عن ابن حزم إقرار بعقرية ابن شهيد ونبوغه وتقديم لحجة سببية بها يعلل تلك العقرية وذاك النبوغ وتمثل في قوى خارقة لا صلة لها بعالم الإنس، فإذا بهذا الكلام من جهة الحجاج معادلة بسيطة يمكن اختزالها في الآتي:

- ابن شهيد عبقري لأن قوى خارقة تدعّمه وتؤيّد.

وهو حجاج منطقي في شكله ولكنّه من حيث المضمون مجرد احتمال أو افتراض لا منطق فيه. فإذا به وفق هذه القطيعة بين الشكل والمضمون مجرد سخرية أو كلام يقصد به غير ظاهره، فما الإقرار بالعقرية والنبوغ عندها إلا تلميح بالأخذ عن الآخرين وتسليم بما اتّهم به ابن شهيد من سرقة أدبية.

غير أنّ اللافت في هذا المدخل أنّ ابن شهيد وهو ينقل كلام ابن حزم أو يذكره به في مقام الترسل يعتمد لغة بليغة جزلة ويستند إلى أسلوب بلاغي معروف وهو الاقتباس فيقتبس عبارتين قرآنتين الأولى ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾<sup>(1)</sup> والثانية ﴿وَهَزِيَ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾<sup>(2)</sup> عبارتان تتعلّقان بالنبي عيسى عليه السلام. فهو من أوتي النبوة وليدا في المهد وهو من هزت أمّه مريم بجذع النخلة حين فاجأها المخاض يوم مولده فاسقطت عليها رطبا جنيا. عبارتان تشيران دون شك إلى معجزة ولادة المسيح ومعجزة كلامه في المهد وليدا ومعجزة نبوته بشكل عام. فإذا بكلام ابن شهيد وإن نسبه إلى أبي بكر يستمدّ من النص المقدّس سلطة ويستعير من سحره قبسا وإذا بأدبه «إعجاز» لا يبعد عن إعجاز المسيح في ولادته من غير أب أو في نبوته وهو في المهد صبي، وفي هذا الكلام ضرب من الحجاج هو «حجاج تمثيل» (Argumentation par

(1) 12، مريم 19.

(2) 25، مريم 19.

(analogie) إذ يعتمد الاستعارة القرآنية لوصف كلامه وهي استعارة تضطلع بدور «حجاجي» فضلا عن دورها «الجمالي». وقوة «الحجاج» في هذه الاستعارة أنها حجة لا يمكن يبسر ردّها لأنها ككل الاستعارات تورط المتلقي من جهة أنها تلزمه بما توصل إليه بنفسه عبر تفكيك الصورة وتحديد وجه الشبه فالقول بأن كلام ابن شهيد إعجاز شبيه بإعجاز المسيح في ولادته ونطقه وهو في المهد صبي نتيجة ينتهي إليها المتلقي عبر تحليل الصلة بين طرفي التشبيه. وهي نتيجة لا يمكن ردّها إلا باستعارة مضادة وهو أمر غير ممكن في مقام كهذا أي في مقام من يتلقى نصا مكتوبا. وهي استعارة على طاقتها الحجاجية التي شرحناها والتي تلتقي فيها مع كل الاستعارات بشكل عام جميلة جمالا يلهي عما جاء بعدها من دس السم في الدسم عبر إرجاع هذه العبقريّة أو هذا الإعجاز إلى قوى خارقة لا صلة لها بعالم البشر، فكلام ابن شهيد وهو يصور نبوغه وإن نسبه إلى أبي بكر لبن حزم إذن لبلاغته التي استمدّها أصلا من بلاغة القرآن حجة لابن شهيد لا عليه. لأنّه يفسر العبقريّة بكونها إعجازا يتجاوز منطق البشر ولا يحتاج إلى تبرير. ومع ذلك يجاري بن شهيد أبا بكر في إدعائه الباطل فيخاطبه «أما وقد قلتها أبا بكر فأصغ أسمعك العجب العجائب» وهي عبارة كما نرى تنبض حماسا وعزما على تبرئة النفس وإبطال تهم الخصوم وتنبض أيضا إثارة وتشويقا لأن المتلقي أيّا كان لا يسعه إلا أن يتساءل عن فحوى هذا العجب العجائب. فابن شهيد إنّما يهيئ المتلقي بهذا الكلام إلى الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الخيال هذا على مستوى القصّ ولكنه على مستوى الحجاج إنّما يهيئه إلى حجج دامغة تسفّه الخصوم وتردّ ما اتهموه به من سرقة وأخذ، تهمة ردّها في الرسالة ترديدا يكشف شدة وقعها فيه إذ عنه قال صاحب أبي الطيّب «بلغني أنّه يتناول» وعن أعدائه يقول هو «فقال فريق ليس ذا الشعر شعره» وبظهور تابعه زهير بن النّمير

على نحو مفاجئ عجب تأخذ الرسالة منحى جديدا وينتقل ابن شهيد بالمتلقي من عالم الإنسان إلى عالم الجانّ أو من دنيا البشر إلى دنيا التّوابع والزّوابع مع المحافظة على الإطار ذاته أو المقام نفسه مقام المساجلة والحجاج: ونعني الاحتجاج للعبريّة أو النبوغ وتسفيه آراء الخصوم وردّ تُهم الأعداء.

المساجلة: إنّ السّؤال الذي يطرح بادئ ذي بدء، هو التّالي : عن أيّ حجاج نتحدّث والحال أن ابن شهيد ينقل القصّة كاملة من عالم البشر إلى عالم التّوابع والزّوابع؟

فالقصّة خياليّة من حيث أطرها المكانيّة والزّمانيّة خياليّة من حيث شخصياتها وكذا الأمر بالنّسبة إلى أحداثها. فالزّمان مطلق والمكان غريب عن عالم البشر غرابة أكّدها ابن شهيد منذ البداية «حتّى التّحمت أرضا لا كأرضنا وشارفت جوا لا كجونا متفرع الشّجر عطر الزّهر». والشّخصيّات خياليّة تتمثّل في توابع الشّعراء والكتّاب من الجانّ ونقاد الجانّ إلى جانب شخصيّات حيوانيّة من غير هذا العالم بل إنّ الشّخصيّة الواقعيّة الوحيدة أي شخصيّة ابن شهيد بدت هي الأخرى خياليّة من جهة أنّه لم يصوّر نفسه تصويرا حقيقيّا تاريخيّا فأخفى جانب المجنون والفسق في شخصيّة وأعطى شرعيّته لسرقاته. إذ يقول صاحب أبي الطّيب المتنبّي: «فقال بلغني أنّه يتناول قلت: للضرّورة الدّافعة وإلاّ فالقريحة صادعة والشّفرة غير قاطعة» بل تراه ينفي عن ذاته كلّ نقص في التّكوين والثّقافة فيصوّر نفسه في صورة الأديب الكامل الذي ملك ناصيتي الشعر والنّثر وفاق كلّ القدامى والمعاصرين فنجد أحد التّوابع يقول له: «اذهب فإنّك شاعر خطيب» بل يجيز له أحدهم في آخر الرّسالة أن يصبح أستاذا يمتحن الآخرين «قال تهيا للحكم». كلّ هذا الخيال في الأطر والشّخصيّات والأحداث قصد به دون شكّ الإمتاع: فالرسالة في بنيتها القصصيّة ممتعة ولا مراة. ولكنّ الإشكال

كيف يوظف الخيال في المساجلة ؟ وكيف يكون الإقناع بالقدرة والعبقريّة في إطار كلّ خيال ؟

الواقع إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتطلب تحليلاً متأنيا للبنية الحجاجيّة في الرسالة ونقصد بذلك تتبّع مسار الحجاج وأنواع الحجج المختلفة التي يدلي بها أبو عامر دفاعاً عن عبقريّته الفدّة وإثباتاً لنبوغه العجيب.

فإذا قرأنا الرسالة من هذه الزاوية ألفينا أنّ البنية الحجاجيّة الظاهرة بسيطة تختزل في حجة سببيّة تتكرّر في كلّ فصول الرسالة شكلها الفني «إجازة» واختزالها المنطقي على هذا النحو:

ابن شهيد عبقري لأن تابع فلان (من الشعراء أو الكتاب الأفذاذ) أجازة أي أقرّ بفضلّه، ولذلك تكرّرت عبارة «إذ هب فقد أجزتك» حتى أضحت لازمة توقع فصول الرسالة، والواقع أنّ هذه الحجة السببيّة تضمّن ضرباً آخر من الحجاج هو حجاج بالسلطة Argument d'autorité لأنّ الإجازة تقوم في جوهرها على إقرار بمكانة المعجز في ميدانه قبل أن تعني اعترافاً بقدرة المجاز، وهي حجاج بالسلطة لأنها تحيل على مرجع معترف بنبوغه قد أجمع الناس على رفعة مكانته الأدبيّة. وهنا لا بدّ من إقرار حقيقة هي المعادلة التي يجريها ابن شهيد في كلّ فصول الرسالة بين الشاعر أو الكاتب وتابعه. فلا فرق عندنا بين امرئ القيس وتابعه، عتية بن نوفل أو بين طرفة بن العبد و تابعه عنترة بن عجلان، أو بين «المتنبّي» وتابعه حارثة بن المغلّس...

ولكنّ السؤال الذي يفرض نفسه من جديد ما قيمة حجة سببيّة تنضوي تحتها حجة سلطة ما دامت الإجازة تتمّ في عالم خياليّ متوهّم ؟  
الواقع أنّ هذه الحجة تظل ذات طاقة فاعلة في توجيه المتلقّي إلى وجهة الخطاب الرئيسيّة وهي الإقناع بعبقرية ابن شهيد وإثبات نبوغه. وذلك لسببين

وجيهين. الأول: أن» الخيال في الرسالة ظلّ مشدودا إلى الواقع بصلات كثيرة وكانت القرائن في النصوص تشدّ المتلقّي في كلّ حين إلى الواقع إلى درجة تنسيه أن القصة خيال وأن الرحلة في غير عالمنا وأن المجيزين أتباع الشعراء لا الشعراء أنفسهم.

فالزمن دنيويّ القرائن يسهل استقصاؤها في ثنایا الرسالة. فالزمن دنيويّ أحيانا كثيرة إذ يقاس بمقياس أرضيّ كالיום والشهر كقوله «... قالوا إنه لفي شرب الخمرة منذ عشرة أيام» أو كما في مثل قوله «قال هو بدير حنة منذ ثلاثة أشهر» والمكان الذي قال عنه «إنه أرض لا كأرضنا» متى وصفه ألفيناه مكانا أرضيا يقاس بمقياس أرضيّ هو «الفرسخ». وصاحب امرئ القيس يقيم بواد من الأودية ذي روح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره»، وتابع طرفه بن العبد يسكن «غیضة شجرها شجران: سام يفوح بهارا وشجر يعبق هنديا وغارا». وأطرف الأمكنة «دير حنة» حيث حلّ صاحب أبي نواس إذ يجتاب ابن شهيد وتابعه «ديارا وكنائس وحانات» حتى انتهى إلى «بيت قد اصطفت دنانه وعكفت غزلانه». بل إن «الواقعية» بدت حتّى في الشخصيات الخيالية فمع افتقار الرسالة إلى وصف مطوّل للشخصيات وتحليل عميق للنفسيات فإنها تتضمن إشارات هامّة على قصرها وأوصافا دقيقة على قلّتها. إذ تكفي إشارة خاطفة موجزة لتوحي بشخصية واقعية ذات ملامح تؤكدها المصادر ويكاد يجمع عليها القدامى من ذلك قوله متحدثا عن تابع أبي الطيب «فأحسن الردّ ناظرا من مقلة شوساء قد ملئت تيهها وعجبا».

ثمّ إنّ المواضيع المطروقة في الرسالة دنيوية أرضية كالشعر والنثر والبيان والتعليم والنقد... كما أن المادة موجودة في الرسالة ونقصد أشعار ابن شهيد ومقطوعاته الوصفية إنما تشدّ المتلقّي إلى الواقع باعتبارها وليدة ظروف دنيوية.



هذه المراوحة الممتعة بين الواقع والخيال نراها مقصودة من قبل ابن شهيد بها يسمو على الواقع الذي فيه اتّهم بالسّرقَة وفيه أنكرت موهيته وقلّت حظوته إلى واقع فيه يصحّح هذه الأوضاع فيردّ ما اتّهم به ويثبت عبقريته ويستردّ حظوة انتزعت منه ظلما.

وتلك الصّلات التي تشدّ المتلقّي إلى عالم الواقع من شأنها أن تنسيه عمدا أنّ الأحداث تجري في عالم الخيال كما تنسيه ولو إلى حين أنّ الشّخصيّات توابع وزوابع لا شعراء ولا كتّاب. والمهمّ عندنا أنّ هذه المراوحة بين الخيال والواقع هي من جهة «الحجاج» مراوحة بين الإمتاع والإقناع أو بين الجمال والإقناع. ذلك أنّ ابن شهيد نأى برسالته عن الرّتابَة وبثّ في أوصالها حياة مثيرة وإن لم تكن على قدر كبير من الحركيّة والصّخب لقلّة الأحداث وتشابهها، ولكنّ إجازته من هؤلاء الشعراء والكتّاب ظلّت فاعلة من وجهة حجاجيّة. فالحجّة الرّئيسيّة التي اعتمدها ابن شهيد ونقصد الحجّة السببيّة وكذلك الحجّة الثّانويّة المنضوية تحت الأولى أو المتفرّعة عنها ونقصد حجّة السّلطة لا تفقدان ألقهما وقدرتهما على الإقناع كما ذكرنا رغم انتقال ابن شهيد إلى عالم متوهم متخيّل، وذلك لانشداد الخيال إلى الواقع في أغلب الأحيان والمراوحة بينهما على النّحو الذي حلّلناه، هذا من جهة ولأنّ الإقناع أو الحجاج لا يتعارض مع «المحتمل» (Le probable) بل يقتضيه أحيانا كثيرة من جهة ثانية.

ونقصد بالمحتمل أن يدور الحجاج لا في حقل الحقيقة الواضحة الدّقيقة بل يجري في عالم تكون فيه الحقيقة محلّ تساؤل وموضع إشكال. فلا حجاج متى كانت الحقيقة واحدة لأنّه ببساطة لا مجال للحجاج حيث يكون الاتّفاق. إنّما يكون الحجاج حيث يكون الشك والاختلاف ولذا كان الحجاج مرتبطا «بالمحتمل» دائرا في فلكه، وكانت «البرهنة» قرينة العلوم الصّحيحة حيث تكون الحقيقة واحدة وكلّ الدلائل والبراهين إنّما تقود إليها.

والواقع أننا متى أمعنا النظر في رسالة «التوابع والزوابع» ألفينا أن الحجاج فيها منتظر ومتوقع ما دامت قد ولدت أصلا من رحم الاختلاف: الاختلاف حول عبقرية صاحبها ونبوغه المبكر، فالكثيرون ينكرون ذلك ويتهمونهم بالسرقة أو على الأقل بالإتباع دون إبداع ولكن البعض وابن شهيد أولهم يؤمنون أن الحكمة قد توتى من كان صبيّا وأن العبقرية لا سنّ لها، فكان الحجاج في حقل غابت فيه الحقيقة أو بعبارة أدق كانت الحقيقة فيه أكثر من واحدة. ولكننا لا نقصد بالاحتمال هنا الحقل العام الحاضن للحجاج فحسب لأن ذلك يتخطى الرسالة ويتجاوز أمر ابن شهيد ومناوئيه أو خصومه لينسحب على كل خطاب فيه حجاج وإنما نقصد إلى ضرب خاص من «الاحتمال» وهو «الافتراض» فالافتراض أن تنتقل من الواقع «الحقيقي» إلى عالم «محتمل» تبنيه في الخطاب وبه، وهو عالم تحكم انتقاء عناصره وتختار بدقة لبناته وتشده بشكل أو آخر إلى الواقع حتى لا يصبح الخطاب ضربا من اللغو واللغط، وابن شهيد في كل الرسالة من فصلها الأول إلى الفصل الأخير (إذا اعتبرناها مكتملة كما وصلتنا). إنما يفترض «إجازة» يمنحها له أعلام من الشعر والنثر فيكون اختزال الرسالة «حجاجيًا» على النحو الآتي :

- لو عاصرت طرفة لأجازني ← ولأنه أجازني فأنا عبقرى.
  - لو عاصرت امرأ القيس لأجازني ← ولأنه أجازني فأنا عبقرى.
  - لو عاصرت المتنبي لأجازني ← ولأنه أجازني فأنا عبقرى.
- وهكذا دواليك لا نغير من الافتراض إلا اسم «المجيز» وتتقدم الرسالة على نحو يمكن تلخيصه في «افتراض» نهائي:
- «لو عاصرت جهابذة الشعر لأجازوني فإذا أنا عبقرى وقد اقر الجميع بفضلي».

هذا الافتراض من جهة «الحجاج» فيه كما ذكرنا وكما نؤكد من جديد طاقة إقناعية لا يستهان بها لأن ما يفترض لا يمكن يسر رده ما دام يجري كله في عالم «متوهم» «محتمل».

فقولنا له «إنهم لن يجيزوك» قول لا معنى له ما دامت لا أدلة تؤكد. بعبارة أوضح إن الافتراض يصعب دحضه لأنه لا يقوم على واقع بل بيني واقعا. وما يُبنى لا يسهل هدمه إلا بواقع جديد يبنى على نحو مغاير، أي يكون الرد الممكن - والحال هنا رسالة تعددت أعلام الأدب فيها - ببناء رسالة أخرى يلتقي فيها ابن شهيد بتوابع أدباء آخرين اوبهؤلاء التوابع أنفسهم ويكون «الإلقاء» ولكن دون «إجازة». أي يكون الامتحان الذي ينتهي في كل مرة بالرسوب. وهذا بطبيعة الحال حجاج مضاد لا يتسنى في مقام «خطاب» مكتوب لا صلة فيه مباشرة بين الباث ومتلقيه، لذا ذهبنا إلى أنه حجاج قوي حتى وإن جاء على سبيل «الافتراض».

ونحن على يقين من أن الحجاج كان عنده ممتعا مقنعا في آن لا سيما وقد عزّزه بضرب آخر من الحجاج نعني حجة «المقارنة» (Argument de comparaison) وذلك حين يعمد إلى الموازنة بين أدبه وأدب غيره موازنة تنتهي دائما بإقرار الفضل لابن شهيد، من ذلك الموازنة بين وصف الهمداني للماء ووصف ابن شهيد له. وذات الحجة أي حجة المقارنة نجدها في شكل فني آخر هو «المعارضة» وذلك حين يعمد ابن شهيد إلى نظم أبيات أو قصيدة يحاكي بها شعراء في نفس الموضوع والبحر والروي. وهو شكل فني واضح في الرسالة إذ لم يخل منه فصل، برع فيه ابن شهيد وبه أعلى من شأن الأدب المعارض وأقر بتفوقه على الأدب المعارض في أغلب الأحيان.

ولكن المعارضة والموازنة اقترنتا بجمال واضح في الأسلوب جمال سهل رصده سواء بالتمعن في الاختيارات اللغوية معجما وتركيبا أو بتحليل «الصور» ووجوه البلاغة بشكل عام، فابن شهيد قد كتب الرسالة بلغة جزلة انتقى بدقة مفرداتها وصيغ كلماتها ووشاها بألوان البديع وأساليب البلاغة فكان «الفن» فيها عاليا والمتعة من قراءتها محلّ إجماع.

فقوله مثلا متحدثا عن صاحب البحرى بعد أن أنشده من شعره فأفحمه «فكأنما غشى وجه أبي الطبع قطعة من الليل وكرّ راجعا إلى ناوردته دون أن يسلم فصاح به زهير: أجزته؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر ولا في صاحبك أبي عامر»<sup>(1)</sup>، يكشف لغة جزلة ويؤكد بلاغة التشبيه. وهو ما يظهر أيضا في قوله «وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة فشق سمعي قرع النواقيس فصحت من منازل أبي نواس ورب الكعبة العليا. وسرنا نجتاب أديارا وكنائس وحانات حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه وتصوك نوافحه فوقف زهير ببابه وصاح: سلام على أهل دير حنة، فقلت لزهير أو هل صرنا بذات الأكيراح؟ قال: نعم، وأقبلت نحونا الرهايين مشددة بالزنانير، قد قبضت على العكاكيز بيض الحواجب واللحي إذ نظروا في المرء استحيا أكثرين للتسبيح عليهم هدى المسيح فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر وبصاحبك أبي عامر، ما بغيتك؟ قال: حسين الدنان، قالوا: إنه لفي شرب الخمرة منذ أيام عشرة وما نراكما منتفعين به فقال وعلى ذلك. ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفّت دنانه وعكفت غزلانه وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة قد افترش أضغاث زهر واتكأ على زقّ خمر»<sup>(2)</sup>.

(1) ابن شهيد الأندلسي، «رسالة التّوابع والزّوابع» ص 104.

(2) ابن شهيد الأندلسي، «رسالة التّوابع والزّوابع» ص 105.

والواقع أن قدرة ابن شهيد على الوصف والتّصوير تلوح واضحة لا لبس فيها في هذا المشهد الذي خصّصه لتابع أبي نواس وجمال الأسلوب فيه بين لا يحتمل جدالا أو تشكيكا. وهو أمر نراه خير رافد «للحجاج» في الرّسالة ككل، إذ لا يكفي أن يجيزه جهابذة الشعر والنثر ليرهن على عبقريته وليثبت تفوّقه إنّما جاء جمال الأسلوب وحسن الصّياغة ليثبتا له قدرة فذة على كتابة أثر ممتع مفيد في آن واحد.

هذا فضلا عن ضرب آخر من الحجاج الجميل ونعني الحجاج بالسّخرية. فابن شهيد ليحتجّ لعبقريته وليسفّه خصومه يلجأ إلى أسلوب ناجح لأنّه لا ذع ونعني أن يستهزئ بخصومه وألدّ أعدائه لا سيّما الإفليلي الذي سمّى تابعه «أنف النّاقة» وأظهره في صورة الأحمق الأرعن الذي لا أدب له ولا أخلاق وكانت العبارة اللّافّة في وصفه «زير علم وزنبيل فهم وكنف رواية»<sup>(1)</sup>، حجّة تقود إلى نتيجتين متناقضتين الأولى ظاهرة ونعني مدح الإفليلي وإقرارا بمكانته العلميّة والثّانية خفيّة وهي المقصودة من حيث السّياق تنفي عنه كلّ علم وفهم وكلّ قدرة أدبيّة أو علميّة، وهي بذلك عبارة تستجيب لمفهوم الحجاج بالسّخرية والذي عرّفه برّندونار Berrendonner بقوله: ما يجعل جملة ما قابلة للاستعمال المقلوب والسّاخر في — رأيي — امتلاكها لقيمة حجاجيّة، بعبارة أخرى لا يمكن قلب معنى «ب» إلا إذا كانت «ب» تعدّ أولا في زمن محدّد من الخطاب حجّة ملائمة لنتيجتين متعاقبتين لنقل النّتيجة «ن» ونقيضها<sup>(2)</sup>.

ولم يكن بقيّة أدباء عصره وأصحاب الجاه والنفوذ في مأمن من سخرية ابن شهيد. ويكفي أن نقرأ بدقّة الفصل الثّالث المتعلّق بحيوان الجنّ لنذكر

(1) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التّوابع والزّوابع» ص 131.

(2) برّندوني (Berrendonner) عناصر البرغماتيّة اللّسانية (Eléments de pragmatique linguistique) منشورات مينيوي (Editions de Minuit)، 1982، ص 182.

مدى عبثه بأدباء عصره وكبار الدولة في الأندلس آنذاك، فبعضهم بغال إذ من إخوانها «من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة»، وبعضهم إوزّ في الخفة والحمق، والتشبيهان حجاجيان لأنّ الوظيفة الإقناعية فيهما مقدّمة على الوظيفة الجمالية ما دام القصد فيهما بين ونعني به «الاحتجاج» للعبقريّة الذاتية و«الاحتجاج» على الخصوم وردّ تهمهم الباطلة.

صفوة القول إذن أنّ كلّ ما في الرّسالة بشعرها ونثرها ممتع «جميل» ممّا يؤكّد خصوصيّة «الحجاج» متى اقترن بالأدب فلا قيمة لحجاج في خطاب «أدبيّ» خفت فيه «الفنّ» وتوارت فيه البلاغة، ولا «فعل» لنصّ يقصد إلى الحجاج قصداً إذا كان الأسلوب جافاً واللّغة عاديّة والصّور قليلة أو الجماليّة فيها ضعيفة.